المبحث السابع

الخطاب الحجاجي

إن أبسط تعريف للحجاج Argumentation أنه وسيلة لإقناع الآخرين والتأثير فيهم ، وباعثه الأول هو الاختلاف Diragreement بين طرفين .

«والغاية التي يرمى إليها الحجاج هي تحقيق الاستمالة Adherence ، استمالة المتلقي لما يعرض عليه من رأي أو دعوى Thesis ، والتأثير العملي في سلوكه وبالجملة الإقناع»[1].

وكان هذا هو الهدف الرئيسي للعقاد من كتابه العبقرية ، إقناع المتلقي بعبقرية الشخصية العمرية ، فسعى العقاد سعيًا دؤوبًا عبر فصول العبقرية لاستمالة المتلقي إليه ، وانعكس هذا الغرض على أسلوب العقاد ، فاللغة تقوم «في الخطاب الحجابي بدور جوهري وفاعل في تحقيق التأثير والاستمالة ، فالمفردات والتراكيب التي يختارها المتكلم لوصف حدث ما تعكس موقفه تجاه ذلك الحدث من جهة ، وتضع ذلك الحدث في نسق تصوري بعينه ، يؤثر في تحديد الموقف الذي يتخذه المتلقي تجاه ذلك الحدث من جهة ثانية»[2].

وقد برزت هذه اللغة في عدة مواطن من العبقرية أذكر منها التهمة التي ألصقت بالفاروق وتواترت عن موقفه من مكتبة الإسكندرية التي قيل إنه أمر بإحراقها فقام العقاد بدفع هذه التهمة عنه ، وأورد في بداية حديثه حجة تقطع كل شك نابعة من أناس لا يدينون بالإسلام فيقول :

---

(١) البلاغة والاتصال ، دكتور جميل عبد المجيد ، ط دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠٠ ، ص١٠٧.

(٢) المرجع السابق ، ص ١١٨ .

«وأحرى شيء أن يلاحظ في مسألة المكتبة هذه أن الذين أدحضوها وأبرأوا عمر من تبعتها كان معظمهم من مؤرخي الأوروبيين الذين لا يهتمون بالتشيع للمسلمين وكانوا جميعًا من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم في هذا الموضوع»[1].

فشهادة المستشرقين من أمثال المؤرخ الإنجليزي إدوارد جيبون والدكتور الفرد بتلر والمستشرق كازانوفا أثبتت أن هذه الخرافة ألفها أجنبي بعد موت ابن الخطاب بستة قرون.

هذا عن المستشرقين، أما عن المشارقة فأورد العقاد رأي جورجي زيدان فقال: «أنه كان يميل إلى نفي الحكاية ثم عدل عن ميله هذا إلى قبولها»[2].

ويخلص العقاد من جملة هذه الآراء إلى نتيجة يذكرها: «يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها، وأنها موضوعة في القرن الذي كتبت فيه ولم تتصل بالأزمنة السابقة له بسند صحيح، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم وتسجيل التعصب الذميم عليه وعلى الإسلام»[3].

وعلل العقاد بعد ذلك أسباب انتهائه لهذه النتيجة، وجملة هذه الأسباب تدور حول عناصر تزييف هذه الحكاية وأنها لم تكن لتجتمع في وقت واحد قبل القرن السادس الهجري، ومنها أن يكون الملفق عليم بالأحوال التي أُثرت عن عمر بن الخطاب، وعالمًا بما في هذه التهمة من المعابة، ووجود حزازة بين الإسلام وخصومه .....

والطريقة السابقة التي اتبعها العقاد في إدحاض هذه التهمة عن الفاروق تعد نمطًا من أنماط الحوار الحجاجي وتسمى (التحقيق Inquiry).

---

(١) عبقرية عمر، ص ١٧٧.

(٢،٣) المرجع السابق، ص ١٨٠.

يتسم الوضع فيه بافتقاد دليل يثبت صحة واقعة ما ، وثمة معلومات سابقة على الواقعة يقوم المحقق بجمعها ، ويبني عليها حجاجًا متصاعدًا حتى يصل إلى دليل قاطع على صحة الواقعة»[1] .

ثم ينتقل العقاد إلى نمط آخر من أنماط الحوار الحجاجي ليعالج به نفس المسألة ، وهذا النمط هو حوار الإقناع Persuasion Dialogue ، أو المناقشة النقدية Critical Discussion .

وفي هذا النمط يتحاور «مشاركان لكل واحد منهما رأي مختلف عن الآخر، ويحاول كل منهما أن يثبت رأيه اعتمادًا على قواعد الاستدلال Inference من مسلمات المشارك الآخر»[2] أي أنني أحاول إقناعك انطلاقًا من مقدمات أنت تقبلها ، ففرض العقاد بعد ذلك أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية ، وناقش هذا الفرض من خلال طرح العديد من أساليب الاستفهام التي خرجت عن معنى طلب العلم إلى معان أخرى أبرزها الإنكار : « إلا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية ، فما هي الوصمة التي تلحقه من هذا الأمر ؟ ولماذا كان يحرم عليه أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها ؟ ولماذا كان ينبغي أن يكون على يقين أنها شيء مفيد للمسلمين ولغيرها من الأمم ، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها ؟ أمن نقص في تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصر حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية ؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها ، إن صح أنهم حفظوها ؟

فإن كان عمر مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها ، وإذا كانت أحوال الأمم التي هي أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوغ

---

(١) البلاغة والاتصال ، دكتور جميل عبد المجيد ، ص ١١٣ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١١١ ، ١١٢ .

الاعتقاد بخلوها من كل قيمة فأين هو العيب في تفكيره إن صح أنه فكر على ذلك المنوال؟[1] وقد تراوح معنى الأساليب الاستفهامية بين التعجب والإنكار .

فأساليب الاستفهام أنكرت معاداة الفاروق للمعرفة أو الفلسفات اليونانية التي لم تصلح حال أهلها ، وعلل العقاد ذلك انطلاقًا من موقع الفاروق كخليفة للمسلمين .

فمن خلال التجربة الواقعية أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات إلى النور ، وانتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب .

وما فرغ المسلمون بعد من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله بينهم سنوات . فكيف يرضى الخليفة الذي يهمه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه إلى كتب لا يؤمن ما فيها؟» [2] ومن خلال العرض السابق يتضح لنا أن اتباع العقاد للحوار الحجاجي (التحقيق) أو (المناقشة النقدية) ، كان الهدف منه في النهاية إقناع المتلقي بأن الفاروق على صواب في كلتا الحالتين وأن هذا لا ينقص من قدره أو مكانته .

« فعلى أي فرض من الفروض لم يكن في تصرف عمر ما يأباه العقل »[3].

* * *

---

(١) عبقرية عمر ، ص ١٨٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

(٣) المرجع السابق، ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

ولمزيد من الأمثلة : انظر (أ) رد العقاد على وصف المستشرقين للفاروق بأنه محدود التفكير ، ص ٣٥ .

(ب) رفض العقاد المبالغة الواردة في رواية ضرب الفاروق لابنه ، ص ٢٣ .